العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الاسلامى

فيما بين عامى ٥٢٤ـ٩٣٦هـ / ١١٣٠ـ١٥٢٩م

تعتبر دراسة تاريخ العلاقات السياسية والحضارية بين مختلف دول العالم الاسلامى من القضايا الهامة فى التاريخ العام الاسلامى • ولكن أمثال هذه الدراسة يستلزم الستعدادا خاصا من الباحث وجهودا مضنية سيما اذا كان الامر يتعلق بتاريخ العلاقات بين دول المغرب والمشرق الاسلاميين فى الفترة موضوع هذه الدراسة وأعنى بها العصر الموحدى ، الذى يواكب القرون الاربعة السادس والسابع والثامن والتاسع الهجرية (١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥م) ويضم ذيولا للقرن العاشر الهجرى (١٦م) اذا أخذنا فى الاعتبار أن الدولة الحفصية امتداد طبيعى لدولة الموحدين ، ذلك أن تحصيل المادة العلمية لمثل هذه الدراسة ملىء بالاشواك ، فالمعلومات المتعلقة بهذه العلاقات قليلة للغاية ، ثم أنها متناثرة ومتفرقة فيما هو متوفر لدينا من المصادر القليلة عن تاريخ الموحدين ، كما أن هذه المعلومات تتعلق بأحداث لا تشف عن روابط ودية بقدر ما تسفر عن أكثر من وجه من وجوه التنافس والعداء القائمين بين دولة الموحدين ودول المشرق الاسلامى المعاصرة لها • ومع ذلك فان التاريخ العلمى الموضوعى هو الذى يعرض لكل وجوه الحركة التاريخية ودية كانت أم عدائية حسبما يعرض للنواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى تدخل فى نطاق أحداثها •

ودراسة تاريخ العلاقات من شأنها أن تحيط بجميع الوجوه وتعبر عن ذلك تعبيرا دقيقا فى مرحلة هامة من مراحل التاريخ الاسلامى عندما كان المشرق الاسلامى يجتاز فترة انتقالية خطيرة : فالخلافة العباسية لم يعد لها السيطرة الكاملة على المشرق الاسلامى كما كان العهد فى عز سطوتها ،

اذ شاركتها الخلافة الفاطمية الشيعية السيطرة على مصر مـركز الثقل فى منطقة الشرق الادنى الاسلامى وان كانت هذه الخلافة الفاطمية فى مرحلة الاحتضار • ومع ظاهـرة التدهـور المتناهى فى كل من خـلافتى المشرق الاسلامى العباسية والفاطمية تعددت الدويلات الاسلامية المنقطعة داخل حدود كل منها مع الاكتفاء باعتراف اسمى بسيادة هاتين الخلافتين •

فى هذه المرحلة المضطربة من تاريخ الشرق الاسلامى قام محمـد بن تومرت ـ مهدى الموحدين ـ برحلته الحجازية الى بلدانه • ومن أحداث المشرق فى زمن هذه الرحلة استمد مهدى الموحدين الاصول الفكرية لدعوته الموحدية ، وهى أصول صقلت من فكرة المهدية الموحدية التى كانت مكتنزة فى حصيلته الفكرية وميراث بيئته الثقافية المغربية • وهذه نقطة هامة من نقاط هذا البحث الذى اهتمت صاحبته بالدراسة المقارنة فيها لابراز طبيعة العلاقات القائمة بين تلك الاصول وأثر كل من الفكرين المشرقى والمغربى فى فكرة المهدية الموحدية التى استحدثها المهدى بن تومرت • ويدخل هـذا الجانب من الدراسـة فى نطاق العـلاقات الفكرية بين المشرق والمغـرب الاسلاميين حيث أن المغرب كانت له ثقافته الاسلامية المميزة منذ انتشار المذهب المالكى فى أنحائه واصطدامه بفكر الشيعة والمعتزلة وأفكار الخوارج الاباضية والصفرية من البربر ومن وفد عليهم من العرب •

ويتعارض ما نذهب اليه مع ما ورد فى معظم البحـوث التاريخيـة الحديثة التى عرضت لتاريخ الدولة الموحدية ، وأرجعت فكر الموحدين الى أصول مشرقية دون الاهتمام بذكر أثر الفكر المغربى فى هذه الاصـول • وهذا الجانب الهام فى تاريخ الموحـدين وصـلاتهم بالمشرق لقى اهتماما خاصا من الباحثة صاحبة هذا البحث التى عاشت فى المغرب ما يقـرب من

ثمان سنوات كانت فى حد ذاتها كافية لكى تبرز أثر التفاعل والتواصل بين الفكر المشرقى والفكر المغربى فى العصر موضوع الدراسة •

وكان المغرب الاقصى فى زمن رحلة ابن تومرت المشرقية خاضعا لدولة الملثمين ، وهم المرابطون أصحاب اللثام ، وكانت دولتهم فى هـذه الآونة ما تزال تعيش مرحلة استقرارها السياسى وازدهارها الحضـارى ، ولكن هذه الدولة لم تلبث أن تعرضت منذ عودة ابن تومرت من رحلته لمشـاكل داخلية وخارجية أثرت تأثيرا مباشرا فى استقرارها السياسى • وكان أكثر ما تعرضت له هـذه الدولة من متاعب فى الاندلس ، فقـد واجهت أخطارا متلاحقة من جانب الممالك المسيحية فى أسبانيا ، وكان على قواتها فى الاندلس أن تخوض معارك ضارية انتهت فى معظم الاحيان بانتصارات حاسمـة فى افراغه وفى اقليش • ومع ذلك فقد كانت هذه المتاعب أقل بكثير مما تعرضوا له من مضايقات أهل الاندلس الذين ، رغم مواقف المرابطـين البطوليـة المشرفة فى الجهاد ومدافعة القوى المسيحية فى أسبانيا ، ظلوا يتعصـبون لاندلسيتهم كما كان العهد فى عصر الطوائف وانتهى الامر بقيامهم بثورات متعددة فى مختلف مناطق الاندلس على حكم المـرابطين • ومن الناحيـة الحضارية انحسرت ثقافة المرابطين عن أقاليمهم البوادى خارج الحاضرة مراكش ، وعاد الى مجتمعات تلك البوادى ميراث فكرها التاريخى وما فيه من مؤثرات شيعية واعتزالية وخارجية • وكان فكر ابن تومـرت وخليفته عبد المؤمن يجسد جانبا كبيرا من هذا الميراث البيئى للبادية المغربية ، وهى نقطة بحث ركزت عليها الدراسة للاجابة على سـؤال هام يتعلق بظاهـرة نجاح ابن تومرت فى تفجير ثورته بين شعب المغـرب مما أدى الى انهيار دولة المرابطين وهى فى أوج ازدهارها كما سبقت الاشـارة ، وقامت على

أنقاضها امبراطورية الموحدين المغربية الكبرى التى ضمت اليها كل بلاد المغرب والاندلس وتطلعت فى عهد المنصور الموحدى الى ضم المشرق الاسلامى •

كانت مصر والشام قد شهدت فى نفس الفترة صفحة جديدة مشرقة فى التاريخ الاسلامى ترتبط بقيام الدولة الايوبية السنية وما اقترن بذلك من الجهاد ضد قوى الحركة الصليبية فى أوجها • وهنا اختلفت الظروف التى عاشتها بلدان المشرق والتى وقف عليها ابن تومرت فى رحلته الشرقية وكانت من الاسباب المباشرة التى دفعته الى تفجير ثورته المهدوية الموحدية • ومن ثم قدر للعلاقات القائمة بين المشرق والمغرب الاسلاميين أن تسطر صفحات من أحداث التنافس السياسى والحربى بين امبراطورية موحدية بلغت قمة عظمتها السياسية ووصلت بحدودها السياسية حتى طرابلس على مقربة من حدود مصر الغربية وبين الدولة الايوبية الفتية التى حلت فى الحكم محل الدولة الفاطمية البائدة وسيطرت على ممتلكات الدولة النورية فى الشام والاراضى الحجازية المتطلعة الى قوة تتولى حمايتها ، وهى دولة فى ذات الوقت سنية المذهب بما يتوافق مع مذهب الخلافة العباسية نفسها ولا يتفق مع المرشدية الموحدية •

ويشكل هذا التنافس طورا من أطوار العلاقات القائمة بين الدولتين منذ بدء قيام كل منهما • ومع ذلك فلم يكن الامر بينهما مجرد تحاسد وتنافس تحول الى مصادمات عسكرية اذا لم يخل من محاولات لفتح صفحة ودية فى تاريخ هذه العلاقات لا سيما وأن الاخطار المحدقة بالدولتين من جانب القوى الصليبية المتمركزة فى الشرق الادنى بالنسبة للدولة الايوبية وقوى الاسترداد الاسبانى البرتغالى المتحالف مع العناصر الصليبية

الواحدة فى طريقها الى المشرق كانت تتطلب بل تستلزم قيام تعاون بين الدولتين •

عن هاتين الصفحتين السياسية والجهادية عرض البحث لموضوع حملة قراقوش الايوبية على طرابلس « الموحدية » كما عرض لموضوع السفارة الصلاحية الى منصور الموحدين • وأفاض فى تفصيلات تتعلق بالموضوعين لاتصالهما الوثيق بأحداث أخرى شاركت فى صنعها عناصر عربية وأخرى مملوكية وبربرية زناتية على وجه الخصوص كانت منتشرة فيما بين مصر وأرض المغرب •

ويمضى ما يقرب من نصف قرن تعرضت فيه الدولتان للضعف وعوامل الوهن والاضمحلال • ولكن الخلافة الموحدية تحولت بمقر حكمها من مراكش الى افريقية وتولى احياءها فرع من خلفاء الموحدين من اعقاب الشيخ أبى حفص الهنتاتى عرفوا لذلك بالحفصيين • ويتفق هذا الحدث مع انتقال الحكم فى المشرق من الدولة الايوبية الى دولة المماليك ، ويؤكد ذلك الحدث تحول مقر الخلافة العباسية من بغداد الى القاهرة • تم ذلك كله فى فترة زمنية تصاعدت فيها الاخطار الخارجية فى المشرق والمغرب الاسلاميين على السواء • ففى المشرق تعرضت دولة المماليك فى مصر والشام لخطر الغزو المغولى ، كما تعرضت دولة الموحدين فى المغرب والاندلس لحملات قتالية برتغالية صليبية « برية وبحرية » عاتية •

ومع استقرار الخلافة الموحدية الحفصية فى افريقية وتحول الخلافة العباسية الى مجرد خلافة اسلامية فى مصر تحت حماية سلاطينها المماليك، قدر لنجم الخلافة الموحدية والحفصية أن يرتفع ويجد صدى له فى بلدان

المشرق الاسلامى • غير ان سلاطين المماليك عارضوا ذلك الاتجاه بكل السبل ، وكان احياء الخلافة العباسية فى القاهرة المملوكية على يد الظاهر ركن الدين بيبرس سندا ارتكز عليه بيبرس لاظهار شرعيته فى السلطنة المملوكية من جهة ووسيلة توسل بها لمواجهة سياسة الانسياح الحفصية ويشكل ذلك الحدث مظهرا من مظاهر التنافس بين دولتى المغرب والمشرق وسرعان ما تبدلت تلك العلاقات فى ظل استقرار الحكم فى كل من الدولتين من علاقات عدائية الى علاقات ودية سياسية واجتماعية وثقافية واقتصادية هذه العلاقات المتنوعة حرصت الباحثة على تتبع مظاهرها من خلال ما اتيح جمعه وتحصيله من اخبار هزيلة ومعلومات شحيحة متناثرة فى بطون المصادر والمراجع • وبالرغم من ندوة هذه الاخبار فقد امكن من خلالها اعداد فصول ثلاثة كاملة من فصول هذا البحث • وقد عانيت كباحثة كثيرا فى البحث والتنقيب عن مادة أعتمد عليها فى دراستها الى حد الاستناد الى الاشارات الواردة فى ثنايا المراسلات المتبادلة بين خلفاء الموحدين ومختلف الدول لا سيما دوقية بيزة الايطالية التى لمعت كدويلة أوربية ذات علاقات تجارية واسعة النطاق فى حوض البحر المتوسط وعقدت علاقات وثيقة فى هذا الشأن مع بلدان العالم الاسلامى مشرقه ومغربه •

وقد رأيت من المناسب ألا أتعرض فى المقدمة لتفاصيل هذه العلاقات وغيرها ، ولذلك اكتفى بذكر أقسام بحثها ومنهجها الذى انتهجته فى هذه الدراسة •

فالبحث ينقسم الى بابين رئيسيين :

الباب الاول : ويتعلق بالصلات السياسية بين الخلافة الموحدية والمشرق الاسلامى ، ويتضمن هذا الباب ثلاثة فصول :

أولها عن قيام دولة الموحدين وتوسعها نحو الشرق • ويعرض هـذا الفصل لاخبار رحلة ابن تومرت المشرقية من عام ٥٠٠هـ (١١٠٦م) ومقابلته للغزالى فى المشرق • كما يعرض لاوضاع المشرق الاسلامى وأحـواله فى الفترة التى كان ابن تومرت يتنقل خلالها بين بلدانه ، ثم عن الاحداث التى واكبت عودة ابن تومرت الى المغرب وظروف التقـائه بسراج الموحـدين خليفته عبد المؤمن بن على • كذلك تعرضت لعدد من القضايا التى تتعلـق بانتشار الدعوة الموحدية فى مصر وغيرها ، وأثبت رأيا يختلف عن الآراء التقليدية فيما يتعلق بصدى دعوة ابن تومرت فى المشرق الاسـلامى • ثم تحدثت عن الخطوات التى خطاها المهدى لارساء دعوته الموحدية باتخاذه تينملل مركزا أساسيا لهذه الدعوة ، وتتبعت مراحل قيام الدولة الموحدية بدءا بالصدام المسلح الذى وقع بين الموحدين والمـرابطين فى أغمـات ، وتسمية المرابطين بالكفرة المجسمين والزراجنة ، واتخاذ سياسة الاستئلاف الفكرى فى المواجهة الاولى مع المرابطين عن طريق المساجلات والمناظرات الى أن تم اعلان قيام الخلافة الموحدية فى سنة ٥١٥هـ (١١٢١م) وتطبيق النظام الادارى العشرى • والاهم فى هذه الخطوات التاريخيـة ما ذهبت اليه فى ابراز ارتباط أحداث هذه المرحلة بالهـدف الاشمل الذى أعلنتـه الدعوة الموحدية ، ويقضى بتجديد الدعوة للاسلام القوى واعادة وحـدته السياسية • وتتبعت عرض هذا الارتباط من خلال الاشارة الى الحـروب الاولى التى خاضها الموحدون حتى وقعـة البحيرة عام ٥٢٤هـ (١١٣١م) التى نسجل بداية تطبيق نظام متميز فى التاريخ العسكرى للموحدين وأعنى به نظام « التمييز » ، ولقد توقفت عند هذا النظام ، لاثبت كيف قدر له أن يصبح أداة هدم فى مستقبل الدولة الموحدية بعـد أن كان من الخطـوات الاولى للحفاظ على كيان هذه الدولة فى مرحلة نشأتها • وكانت الجهود التى

بذلها عبد المؤمن فى هذا الصدد تستهدف الى انقاذ الدولة الموحدية بعد صدمة وفاة المهدى المبكرة الى اعلان نفسه أميرا للمؤمنين • فالاساس فى هذه العلاقة عند الموحدين هو ما يعرف بالجهادين : الجهاد الاكبر أى جهاد الاعداء من غير المسلمين دفاعا عن الاسلام ، والجهاد الاصغر أى جهاد فى العالم الاسلامى ذاته • وفيما يتعلق بهذا الجهاد الاصغر افترضت الفكرة الموحدية انجازه فى فترة زمنية قصيرة وذلك على عكس ما حدث فى الواقع، حيث طال به الزمن ، ومن ثم عرقل ذلك مهمة الموحدين فى ممارسة الجهاد الاكبر • وفى اطار هذين الهدفين تنوعت العلاقات الموحدية فى الاراضى المحيطة بدولتهم سواء فى الاندلس شمالا أو فى بلدان المغرب العربى حتى مصر شرقا •

وعالجت فى الفصل الثانى موضوع العلاقات السياسية والحربية بين الموحدين والايوبيين • فتحدثت عن تدخل الدولة الايوبية فى شئون الموحدين الداخلية فى طرابلس عن طريق الحملة المملوكية التى أسند صلاح الدين قيادتها الى تورانشاه وتولى قيادتها الفعلية بهاء الدين قراقوش الاسدى ، وقد تحدد الاطار السياسى لهذه الحملة منذ دخولها افريقية فى عام ٥٧٥ هـ (١١٨٠م) ، فظهرت بصورة تحالف يجمع بين مماليك قراقوش الغز ، وعرب بنى هلال ، ثم أنصار دولة المرابطين البائدة ممثلين فى بنى غانية أصحاب البليار • وقد أوضحت فى هذا المجال دور الموحدين فى مواجهة التحالف الثلاثى سالف الذكر • وعلى الرغم من عودة قراقوش الى مصر فى سنة ٥٨٣هـ (٦ — ١١٨٧م) الا أن آثار حملته على المغرب الادنى (افريقية) تركت جروحا غائرة فى العلاقات المصرية المغربية كما أن دولة

الموحدين ظلت تنظر الى تلك الحملة نظرة الرافض لكل خارج عن تعاليم الخلافة الموحدية المرشدية •

واذا كانت حملة قراقوش تعكس صفحة قاتمة فى تاريخ العلاقات السياسية بين الخلافة الموحدية والمشرق الاسلامى ، الا أن ما تلاها من أحداث — أى ما يتعلق بأخبار السفارة التى بعث بها السلطان صلاح الدين على يد أسامة بن منقذ والتى طلب فيها من الخلافة الموحدية عونا بحريا لصد الهجوم الصليبى على عكا فى الشام — ينهض دليلا كافيا على مبادرة طيبة وودية من جانب الدولة الايوبية تجاه الخلافة الموحدية وفقا لاقوال صلاح الدين نفسه ، واعتذاره عما قام به قراقوش فى البلاد الافريقية • ولقد تعرضت لتلك السفارة منذ دخول أسامة بن منقذ افريقية عام ٥٨٦هـ (١١٩٠م) ، ومقابلته لمنصور الموحدين عام ٥٨٨هـ (١١٩٢م) ، وعدم تلبية المنصور للطلب الايوبى • وأوضحت السبب فى اعتذار المنصور عن عدم تلبيته للطلب الايوبى بانشغاله فى صد الهجوم الصليبى البحرى الذى وجهوه على غرب الاندلس ، وهذا الجهاد فى حد ذاته يعبر عن مشاركة فعالة من جانب المغرب الاسلامى فى مواجهة الحركة الصليبية وفى نفس الوقت مساندة يقدمها المغرب راضيا للايوبيين •

ومن الجدير بالذكر أن أخبار حملة قراقوش سجلت فى المضمار سنة بعد سنة ، وقد عكفت على تحليل نصوص الوثائق التى يشتمل عليها هذا المضمار ، وتمكنت من خلال هذا التحليل ومقابلة النصوص فيما بينها من استنباط حقائق علمية جديدة •

وعالجت فى الفصل الثالث موضوع العلاقات السياسية بين الخلافة الموحدية الحفصية والمشرق الاسلامى ، وفيه أوضحت مكانة افريقية

(تونس) بالنسبة للمشرق ، ومدى امكانياتها فى مجال البحرية التجارية مع افتقارها للقوة الذاتية البشرية والاقتصادية ، وقد ساعدت هـذه العوامل على تأصل قيام الدولة الحفصية منذ عام ٦٠١هـ (١٢٠٦م) على يد محمد بن عبد الواحد بن أبى حفص • كذلك أوضحت كيف تم للحفصيين استغلال الخلاف الفكرى للموحدين فى مراكش خاصة فى عهد المأمون ، بأخذ البيعة لانفسهم من أشياخ الموحدين • وقد هيأ لهم ذلك حمل لقب الامارة مـع الاستمرار فى ذكر اسم المهدى معتمدين فى ذلك على نفس الشرعيـة التى استند عليها الموحدون من قبل • ففى عام ٦٤٠هـ (١٢٤٢م) بويـع لابى زكريا الحفصى البيعة الاولى من أهل المغرب وفى عام ٦٤٣هـ (١٢٤٤م) تمت البيعة له من الاندلس •

وقد عالجت فى هذا الفصل أيضا أهمية العلاقات الحفصية مع الدولة الايوبية من حيث تأثر هذه العلاقات بالمصالح المشـتركة بين الدولتـين نتيجة تنبهها لابعاد الخطر الصليبى المشترك الذى تجاوز القدرة انجهادية للدول الاسـلامية •

ولم يفتنى فى هذا الفصل أن أبرز تطلع سـلاطين بنى حفـص الى التلقب بلقب « الخليفة أمير المؤمنين » منـذ عام ٦٥٠هـ (١٢٥٢م) الذى يسجل سقوط بغداد فى أيدى المغول وانتقال الخلافة العباسية الى القاهرة• وقد ترتب على ذلك أن تعلق الحفصيون بتراث الخلافة الموحـدية وبذلوا جهدهم فى احيائه الى حد أنهم طلبـوا من المماليك فى مصر أو يتوجهـوا بولائهم الروحى نحو الخلافة الموحدية الحفصية وانهاء حالة الثنائيـة فى الخلافة الاسلامية العامة • وقد تأكد مسعى الحفصيين هذا بوصول بيعة مكة اليهم فى عام ٦٥٧هـ (٨ ــ ١٢٥٩م) • وأثبتت المراسلات الحفصية أن

لقب الخلافة كان مما تلقب به سلاطينهم[١] .

ويتأكد هذا اللقب لمن يضفوا على حكام الحفصيين لقب السلطنة من الرجوع لنصوص الالقاب الحفصية فى المصادر الاصلية الوارد نماذجها فى الملاحق . وتبقى بعد ذلك مشكلة البحث فى وضعية الاسرة الموحدية التى تألف منها مجلس العشرة فى تونس والتى استمد منها الحفصيون الحصانة الدينية الموحدية ، ومن ثم تلقبوا بلقب الخلافة وامرة المؤمنين . والواقع أن هذه الاسرة كانت تمثل طبقة اجتماعية دينية عليا فى المجتمع الحفصى . وفى عهود الحكام الحفصيين الضعفاء ظهر هؤلاء مجرد سلاطين يستندون الى المكانة الاجتماعية والدينية العليا للاسرة الموحدية ، وهذا ما جعل أعداءهم بالذات ينكرون عليهم لقب الخلافة وامارة المؤمنين ، ويفسر لقب الخليفة بمعنى المهدى بن تومرت لا سيما وأن اسم الاخير كان يتصدر خطبة الجمعة الحفصية الرسمية .

وقد أوضحت انتجاع كثير من أفراد البيت الحفصى الى الاسكندرية فى أوقات أزماتهم فضلا عن كثرة تردد المغاربة على الاختلاف مهنهم على هذه المدينة فى الوقت الذى كان فيه الايوبيون ومن بعدهم المماليك يشتغلون بمدافعة القوى الصليبية . وفى نفس هذا الوقت أيضا بدأت الدولة الحفصية بعد عهد المستنصر تسير سيرا حثيثا نحو الاضمحلال الى حد اعلان اسم السلطان المملوكى المصرى فى خطبة الجمعة بدلا من اسم المهدى . ثم سجل عام ٧٢٧هـ (٧ — ١٣٢٨م) بدء مرحلة الانهيار بالنسبة للدولة الحفصية وهى مرحلة استمرت حتى سنة ٧٧٢هـ (١٣٧٢م) فى

---

(١) انظر الملحق رقم ١ ، ويضم نماذج لصورة هذا اللقب وردت فى بعض المراسلات الواردة ضمن مجموعة امارى عن الموحدين والحفصيين .

الوقت الذى تسجل فترة البعث المرينى (من عام ٧٤٨ حتى ٧٥٠هـ) على يد أبى الحسن المرينى وابنه أبى الفضل • غير أن الدولة الحفصية لم تلبث أن استعادت قوتها ، وأخذ سلاطينها يتلقبون من جديد بلقب الخلافة الموحدية فى الفترة ما بين عامى ٧٧٢ — ٨٩٣هـ فى عهود ثلاثة من عظماء حكامها هم : أبو العباس أحمد ، وابنه أبو فارس عبد العزيز ومحمد المستنصر •

وفى اطار هذه النقلة الواقعة فى التاريخ الحفصى بين القوة والضعف، عرض نفس الفصل فى شقه الاخير وكخاتمة لفصول الباب الاول لدور كل من العرب والترك والمغاربة فى تلك العلاقات الموحدية — الحفصية — المشرقية ، بدءا باحلال الترك محل العرب ، وبروز دورهم العسكرى ، مع بيان أهمية مكانتهم المدنية التى رفعت مكانة العرب فى النصف الاول من عصر دولة الموحدين لا سيما فى عهدى يعقوب المنصور والناصر •

وقد واصلت فى هذا الفصل توضيح مدى التفوق للدور التركى المملوكى الذى قابله انحسار للدور العربى سواء فى مصر أو فى المغرب وبالتالى كان سببا فى ثورات العرب أو العربان المستمرة • ثم عرضت للاراء المختلفة حول هؤلاء العربان عند كل من : ابن اياس والعبدرى وعبد الوهاب بن منصور ، ثم أبرزت كيفية الاستفادة منهم فى الحرب الدائرة بين الحفصيين أنفسهم • وأخيرا تعرضت لدور المغاربة العسكرى فى المشرق وعلى الاخص عند الاعتداء القبرصى على الاسكندرية فى عام ٧٦٧هـ (١٣٦٥م) ، وكيف كانوا يشكلون أغلبية البحريين فى الاسطول المصرى فى العصرين الايوبى والمملوكى •

أما الباب الثانى فيتناول عرضا لاهم مظاهر الصلات الحضارية القائمة على التبادل الحضارى بين الخلافة الموحدية والمشرق الاسلاميين، ويشتمل على ثلاثة فصول مكملة للفصول السابقة هى :

الفصل الرابع ويتعلق بالصلات الاجتماعية ، وفيه عرضت للرحلات المغربية الى المشرق والطريق الذى كان يسلكه الرحالة المغاربة اليه وأهمية الاسكندرية كباب المغرب وما أورده هؤلاء الرحالة المغاربة عنها ، بل تعرضت لوصف بعض المدن المصرية الاخرى التى كان لها دور هام فى اجتذاب علماء المغاربة الى المشرق مثل قوص — بلبيس — عيذاب .. الخ . كذلك تعرضت لذكر ما كان يلاقيه تجار المغاربة من معاملات كريمة أو سيئة من أهل الاسكندرية ، ووضع طبقة التجار المغاربة الذين وصفوا بأنهم « من مياسير القوم » ومدى مشاركتهم فى الحياة المغربية . وانتقلت بعد ذلك الى الحديث عن وضع الجالية المغربية بوجه عام وما كانت تلاقيه من ترحيب الحكام والسلاطين ، وما أقاموه لهم من منشآت لايواء ضعفاء الحال منهم .

وأوضحت فى موضع آخر فى الفصل مدى التأثير المغربى فى الحياة المصرية من ظهور فن المديح ، وما قابله من تأثير مشرقى فى الحياة المغربية. وتناولت بالدراسة مدى الاثر المغربى فى المجتمع السكندرى فى العادات واللغة وبعض أنواع الزى والاطعمة التى ما زال بعضها معروفا لدى أهل الاسكندرية بوجه خاص حتى يومنا هذا ، كما عرضت لمؤثرات المشرق فى الحركة الادبية بظهور عدد من الكتاب والشعراء ، وظهور فن الملحون أو ما يعرف بالزجل المغربى . هذا وقد رأيت أن أبرز دور المرأة المغربية فى

الحياة الادبية والعلمية أسوة بأختها فى المشرق ، ثم دور المدرسة المغربية الصوفية على يد أبى العباس السبتى وعبد السلام بن مشيش •

وفى ختام هذا الفصل تعرضت لموقف الموحدين من اليهود عامة ، واعتبارهم من أهل الذمة ، وتحديد شكل ملابسهم وبيوتهم وركوبهم • وقد اعتبر الموحدون اليهود والنصارى أعداء للاسلام بحيث تعرضوا للاهانة فى عهد يعقوب المنصور الموحدى • ومع ذلك أبرزت مدى انتعاش حالتهم بعد وفاة الناصر الموحدى وفى ظل خلافة المأمون أثناء القدح فى العقيدة التومرتية الى حد الاستعانة بالنصارى على المسلمين وبشروط مجحفة بلغت حد اقامة كنيسة فى مراكش • وبينت كيف تلت مراحل انشاء هذه الكنيسة وهدمها صفحة من العلاقات المتنوعة الموحدية المسيحية تراوحت بين التباعد أو التنافر والالتقاء لا سيما فى عهد الخليفة المرتضى حسبما يظهر من الرسائل المتبادلة بينهما • وهناك نص وردت صورته فى ملحق البحث يتضمن رد هذا الخليفة الموحدى على احدى الرسائل المسيحية يتضح فيه حال أهل الذمة فى المغرب فى ظل الحكم الموحدى •

وفى الفصل الخامس ويتعلق بالعلاقات الاقتصادية تناولت أهمية كل من الاسكندرية وتونس وبجاية فى الحركة التجارية بحوض البحر المتوسط وما مثلته هى وغيرها من محاور رئيسية للتجارة بين الشرق والغرب شكلتها فروع ثلاثة من العلاقات : بين الشرق وأوربا ، الغرب الاسلامى وأوربا الغربية ، ثم الشرق والغرب الاسلاميين • ومن خلال ما تجمع لدى من مجموعة رسائل أمارى المنشورة نشرا محدودا والمحفوظة فى المكتبات الاوربية أوضحت ما فرض من اجراءات مشددة لتأمين الطريق التجارى ، وعلاقة ذلك بنشاط القرصنة وآثارها على تلك العلاقات وكيفية حل

مشاكلها • ولم أشأ أن أعرض كل ما توفر لدى من مجموعة تلك الرسائل وانما اكتفيت بتسجيل نصوص عدد منها يخدم البحث فى ملاحق البحث •

وفى ضوء هذا الحديث عن العلاقات التجارية تعرضت لدراسة تجارة السودان عبر مسالكها الصحراوية وما كانت تمثله من أساس للقوافل التجارية البرية ، وكيف ربطت بما فيها — من الربط والحصون والقلاع ومراكز تجارية وأسواق — بين المشرق والمغرب • واستخلصت ما كان لهذه المسالك من ازدهار نوع هام من السلع مثل تجارة الذهب وبينت مواضع استخراجه وأهميته وكيفية تبادله (التجارة الصامتة) ، ومثل تجارة الملح وكيف كان الملح فى تعامله يوازى التعامل بالذهب ومثل تجارة الرقيق وأهميتها فى ذلك الوقت • وأظهرت أن هذه التجارة كانت تمضى فى اطار من العلاقات الودية بين المغرب والمشرق ، وأوضحت ما كانت تعكسه من مظاهر انتعاش فى الحياة الاقتصادية فى بلدان كل منهما ، فضلا عن الطرف الثالث أو الشريك الاوربى فى اكمال هذه الدورة التجارية •

وهنا يبرز دور الموحدين فى تنظيم هذه العلاقات التجارية من خلال كتب الامان التى كانوا يصدرونها ، وما تتضمنه من تنظيمات تتعلق بمصير أدوار كل من التجار والوكيل الثقة والعدول والتراجمة والوسطاء التجاريون والدلالة فى الحلقة التجارية • ويظهر فى اطار هذه العلاقة أدوار للمصرى والعراقى والشامى والتلمسانى والطنجى والتونسى والبجاوى والجنوى والبندقى والبيشانى •• الخ •

وفى اطار نفس هذه العلاقات التجارية ، واصلت الحديث عن انشاء الفنادق والاسواق ، وكيف أن فكرتها كانت مقتبسة من الشرق • كما عرضت لما يترتب على ذلك من تنظيم مالى واختلاف أوزان الدينار وصلة ذلك

باليهود ودورهم البارز آنذاك فى هذه الحركة التجارية ، فكان منهم الوسطاء الدبلوماسيين الى الدول الاوربية ، والتراجمة فى المعاهدات وكتاب° البلديات وملاك السفن التجارية المترددة بين المغرب والمشرق •

الفصل السادس والاخير ويتعلق بالصلات الثقافية والفنية بين الخلافة الموحدية والمشرق الاسلامى • وفيه تعرضت لدراسة الاصول الفكرية التى قامت عليها الدعوة الموحدية . وكيف أن المهدى استقاها من الفكر المشرقى لا سيما الاشعرى وما يتصل به من فكر الغزالى وشيعى وخارجى ، فضلا عن الفكر المالكى السلفى • ولقد أوضحت فى هذه الدراسة مظاهر هذا الخليط الفكرى فى مجتمعات المغرب والمؤثرات البيئية التى ينطوى عليها ، وأثبت أن فكرة المهدية الموحدية عند ابن تومرت كانت نتاج هذا المزج وتلك المؤثرات لا سيما ما يتعلق بفكر قبيلته مصمودة ومجتمعها الجبلى النائى • لذلك كانت مؤلفاته : المرشدة الموحدية ، وتآليفه عن القواعد والامامة والتوحيد ، وتسميته للعارفين بها باسم الموحدين وتصنيف صفاتهم ، وأقوالهم عن الغيب وأنه موحى اليه من الله • بل ان تعاليم مرشدته الموحدية بلغت حدا من التقديس تلت فيها مرتبة القرآن الكريم فى الاسلام •

وعرضت فى هذا الفصل أيضا لفقهاء المغاربة القاطنين فى المشرق والتقاء ابن تومرت بهم ومشاركته لهم فى حلقات دروسهم • وهنا تبرز مدرسة الاسكندرية السنية وعلى رأسها أعلام المغاربة أمثال : الطرطوشى (٤٥٠ — ٥٢٠هـ / ١٠٥٨ — ١١٢٦م) والشاذلى (٥٩٣ — ٦٥٦هـ / ١١٩٧ — ١٢٥٨م) وأبى العباس المرسى (٦١٦ — ٦٨٥هـ / ١٢١٩ — ١٨٢٧م) • ومع ذلك ، فقد اختلفت تعاليم المرشدية الموحدية عن تعاليم أئمة هذه

المدرسة مما ينهض دليلا جديدا على أن أصل فكر الموحدين انما استمده ابن تومرت أصلا من بيئته المغربية وصقلته الرحلة المشرقية صقلا جليا •

وفى اطار هذا العرض سجلت قائمة بمختلف المغاربة المقيمين فى المشرق ، والمشارقة الراحلين الى المغرب والمغاربة العائدين الى المغرب وآثارهم المختلفة فى جوانب الحياة بكل من المغرب والمشرق •

وختمت البحث بدراسة نماذج من المعاهدات التجارية الموقعة بين الدولة الموحدية الحفصية وأوربا من ناحية وبين الدول المشرقية وأوربا من ناحية ثانية• وهذه المعاهدات قد تضمنت موضوعات تتعلق بالمكس ومقداره وسبب اختلاعه وكذلك مقدار الضريبة على كل جنسية وصور الاعفاء منها ونوع المواد المعفاة من الضرائب ، وأنواع التجارة المتبادلة ، وهى مظاهر من المعاملات الاقتصادية تقدم صورا شتى للعلاقات الاقتصادية بين الغرب والشرق الاسلاميين عبر الوساطة الاوربية •• وفى هذا الصدد ، برز أيضا دور تونس فى اطار الوساطة بين التجار الاوربيين وسلطات مصر لاعطاء حقوق نجارية لبيزة تماثل ما كان للبندقية •

وقد سبقت الاشارة الى ذكر الفترة الزمنية التى يشغلها البحث وهى: ٥٢٤ — ٩٣٦هـ / ١١٣٠ — ١٥٢٩م • وأن عام ٥٢٤هـ هو تاريخ وقعة البحيرة التى بها يتحدد تاريخ بداية الدولة الموحدية ورسوخ دعوتها للخلافة • كذلك حدد البحث عام ٩٣٦هـ /١٥٢٩م نهاية لاحداث هذه الدولة فى فرعها الحفصى الممتد حتى سقوط المغربين الاوسط والادنى فى أيدى العثمانيين •وهناك أكثر من تاريخ يحدد نهاية الدولة الموحدية الحفصية • ففى عام ٩٣٥هـ (١٥٢٨م) كان دخول العثمانيين فى شخص خير الدين بربروسا الى الحضرة الحفصية • وفى العام التالى ٩٣٦هـ (١٥٢٩م) ، على حد قول ابن أبى الضياف،مؤلف مخطوط « اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك

تونس وعهد الامان » : « .. ودخل الحاضرة بغير دفاع ، واستولى على سرير ملكها ، ودعا للسلطان العثمانى على منابرها ورسم اسمه على السكة : وذلك فى سنة ست وثلاثين وتسعمائة »[1] .

غير أن الاسبان استولوا من العثمانيين على الحضرة الحفصية فى عام ٩٤٣هـ (١٥٣٦م) وقاموا على حكمها باسم حماية الامارة الحفصية حتى وقوع وقعة حلق الوادى فى عام ٩٨١هـ / ١٥٧٣م . فى هذه الوقعة كان انتصار العثمانيين الساحق على الاسبان وبها تأكد نهائيا دخول الحضرة التونسية فى أملاك الامبراطورية العثمانية . وبعدها كان انقضاء عهد الاسرة الحفصية كلية .

وواضح أن التاريخ الاول ٩٣٥هـ (١٥٢٨م) يمثل النهاية الحقيقية للدولة الموحدية الحفصية ، اذ أن أحداثها بعد هذا التاريخ هو ما دخل أساسا فى علاقات النزاع الدولى بين العثمانيين والاسبان ،ووقوع الامراء الحفصيين فى براثن التنافس فيما بينهم والاستعانة بالطرفين الدوليين فى ضرب بعضهم البعض .

هذا وقد اعتمدت فى عرضى لهذه الدراسة على عدد من المصادر الاساسية وأهمها الوثائق التاريخية لدولة الموحدين هذا بالاضافة الى عدد كبير من المراجع الحديثة المتخصصة فى موضوع البحث ، وفيما يلى عرض لاهم هذه المصادر .

---

(١) أحمد بن أبى الضياف ، اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الامان ، تونس ١٩٧٧ ، تحقيق لجنة من كتاب الدولة للشئون الثقافية والاخبار ، النشرة الثانية ، ج٢ ، ص ١٢—١٣ .

١ ــ مخطوطة « أقوال المهدى بن تومـرت فى علم الكلام بــل شرح أعـــز ما يطلب » :

لابى بكر على الصنهاجى المعروف بالبيذق • وقــد تم العثور عليها حديثا فى مدينة مراكش فى عام ١٩٧٥ العاصمة الموحدية ، فى احدى الخزائن الخاصة بعد عناء كبير وهى مكتوبة بخط مغربى جيد ، ولكن لسوء الحــظ يوجد بها تلف فى أجزاء كثيرة بسبب قدمها ، كما أن الصفحات ٤٢٤ ، ٤٦٣، ٤٦٤ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ناقصة • وقد تم تصــويرها ميكروفيلميا ، وحفظت فى دار الوثائق بالرباط ــ المغرب ومسجلة برقم ١٠٥١ •

وتشتمل المخطوطة على ٥٦٦ صفحة ، مقاس ٢٠×١٣ سم وكل صفحة تشتمل على ٢١ سطرا • جمع فيها البيذق جميع أقوال المهدى بن تومرت فى علم الكلام ، وأورد كل استشهادات المهدى فى تفسيراته كل على حدة فى فصول عدة منها : العلم والنقل والجــائز والواجب والمستحيل والقياس والشرع والخلدين • كما أورد أقوال المهدى المأخوذة عن الاشاعرة وبصفة خاصة رأى الاشاعرة فى العلوم ، ويستشهد على كل تلك الاقوال بالحديث الشريف •

ورغم أن المخطوطة تخــوض بعمق فى النــواحى الفكرية والعلوم الفلسفية ، الا أن البحث استند اليها فى بعض التفاسير الخاصة بموقف المهدى بن تومرت وفى الاساس الفكرى للخلافة الموحدية •

٢ ــ مجموعة الوثائق الموحدية التى نشرها الاستاذ ليفى بروفنسال:

قدم الدكتور محمد حجى[1] فى تصديره لكتاب « مــؤرخو الشرفا » ترجمة مطولة للاستاذ بروفنسال مؤلف الكتاب أبرز فيها الخدمات الجليلة

---

(١) الاستاذ بكلية آداب الرباط ، جامعة محمد الخامس وعميد الكلية .

التى أسداها هذا المستشرق الفرنسى الكبير للدراسات المغربية الاندلسية وفضله فى احياء قسط لا يستهان به من التراث التاريخى والحضارى والادبى للمغرب الاسلامى بوجه خاص •

ومن أهم مآثره وأفضاله نشره لمجموعة الرسائل الموحدية وهى من انشاء كتاب الدولة الموحدية المؤمنية ، تصل الى سبعة وثلاثين رسالة رسمية موحدية نشرها بالرباط فى عام ١٩٤١م • ولهذه الرسائل أهمية قصوى فى ابراز الخطوط الرئيسية لسياسة الدولة تجاه المتمردين عليها مثل : ابن مردنيش فى الاندلس ، وابن غانية فى جزر البليار ثم فى افريقية، كما تتضمن اشارات ضافية عن حملة قراقوش ، وعن كيفية القضاء على الغز • وتسجل هذه الرسالة أيضا وصفا دقيقا لعرب المشرق وكيفية اصطناع الدولة لهم عن طريق سياسة التودد والتقريب ، واللين والترغيب، مع تذكيرهم بأمجاد العرب ونجدتهم الدائمة لاعانة اخوانهم عرب المغرب بل ومسلمى الاندلس • وقد استند البحث الى فقرات عديدة من تلك الرسائل للاستدلال على استقرار الدولة الموحدية ولعرض بعض مظاهر الحياة الادبية ممثلة فى شخص كتابها المبرزين أمثال : أبى جعفر بن عطية وأخيه أبى عقيل ، وأبى الحسن بن عياش ، وأبى الحكم بن المرخى ، وأبى القاسم القالمى ، وأبى الفضل بن محشرة ، وأبى عبد الله بن عياش •

٣ ــ مجموعة رسائل نشرها ميشيل أمارى تحت عنوان :

Documenti Degli Archivi
Toscani Pubblicati Par Cura Della R. Soprintendenza Generale Agli Archivi Medesimi.

هى مجموعة من الوثائق الهامة غير معروفة لدى الدارسين المشارقة

وتتركز أهميتها فى أنها تسلط الضوء على طبيعة العلاقات التجارية القائمة بين دولة الموحدين والدولة الحفصية وبين المدن التجارية فى ايطاليا وعلى رأسها جنوة والبندقية وبيشة • وتتضمن هذه الوثائق عقودا تجارية يعمل بها حسب القوانين الموضوعة ، وبعض رسائل موجهة من سلاطين المشرق خاصة من مصر المملوكية فى عهد كل من السلطان قلاوون والسلطان برسباى والسلطان قايتباى والسلطان قانصوه الغورى الى هذه المدن التجارية ، فهى تصور العلاقات التجارية القائمة بين المغرب الموحدى والمشرق الاسلامى سواء بالطريق غير المباشر عبر أوربا ، أو بالطريق المباشر من تونس الى الاسكندرية التى تعتبر أهم قواعد الحركة التجارية البحرية فى حوض البحر المتوسط •

ولاهمية تلك الرسائل عمدت الباحثة الى نشر بعضها رغم طوله كملاحق ذيلت بها الرسالة ، فهى تعتنى بالنظام الضريبى وذكر أنواع السلع التجارية وأوضاع التجار الاجتماعيا ودينيا وما كان يسمح لهم به من بناء الفنادق وما يتبعها من كنائس ومدافن •• الخ وتحديد نوع القضاء بين الاوربيين بعضهم البعض وبينهم وبين المسلمين ، وعدم السماح بالقرصنة لسفن المسلمين وعقوبة ذلك • بل ان الرسائل توضح دور تونس كوسيط فى العلاقات التجارية بين أوربا ومصر المملوكية ومطالبتها سلاطين مصر بحكم العلاقات الودية السماح لتجار أوربا بالتجارة فى مصر وأن يكون لهم حقوق هى نفس حقوق اخوانهم البنادقة • وهذا الكتاب الذى يضم تلك الرسائل محفوظ فى دار الوثائق بالرباط بالمغرب تحت رقم A4O 583 / 1 bis ويشتمل على أكثر من أربعين رسالة •

٤ ــ كتاب أخبار المهدى بن تومرت وبداية دولة الموحدين :

لصاحبه أبى بكر على الصنهاجى المكنى بالبيذق : من المصادر الهامة فى موضوع البحث ، حيث أنه يبدأ « من عنــد وصــوله الى تونس » • والكتاب لذلك قطعة مبتورة الاصل ، لا يتضمن فترة حياة المهدى الســابقة لعودته من المشرق الى تونس • ولمــا كان البيذق صاحب المهدى وخادمه وتابعه ومن أشد المخلصين للدعوة الموحدية المهدوية ، ومــن أكثر المعجبين بخليفته عبد المؤمن بن على الكومى ، فقد طغى على كتاباته بنوع من المبالغة الملحوظة ، بل وجنح الى الخيال فى سرد أخبار المهدى وخليفته وفى تتبــع علاقاتهما مع الملثمين •

وتتجاوز أهمية الكتاب العــلاقات الاولى بالمرابطين الى الغــزوات التسعة التى خاضها المهدى ، وفيها يروى البيذق بعض القصص التى تثبت مقدرة المهدى وبراعته فى استخدام اللغة العربية والبربرية فى حل مشاكله الخاصة الى أن ينتقل الى عهد عبد المؤمن فيذكر حملاته الشهيرة (منذ عام ٥٣٤هـ / ١١٣٩م) فى المغرب المراكشى ، ثم يشير الى ارتحاله تجاه الشرق، مستهدفا السيطرة على المغرب الاوسط ، ويعود من جديد الى سرد وقائع فتح فاس ومكناس حتى سقوط مراكش قاعدة الحكم المرابطى عام ٥٤١هـ (٦ ــ ١١٤٧م) •

٥ ــ وللبيذق كتاب آخر لا يقل فى أهميته عن كتاب المهدى وأعنى به كتاب المقتبس من كتاب الانســاب فى معرفة الاصحاب • وفى هذا الكتاب يسرد البيذق النسب العربى القرشى للمهدى ، وكــذلك يفعــل مع خليفته عبد المؤمن ، ثم مع آل بيت المهدى • وينتقل الى القبائل وترتيبها حسب

أهميتها فى الدخول الى التوحيد ، والتعريف بفروعها وبطونها ومواضع نزول كل قبيلة منها وينتقل الى التعريف بأصحاب المهدى الاوائل — العشرة — السابقين الى اعتناق التوحيد ، أمثال : الونشريسى وعبد الواحد الشرقى وعبد المؤمن وأبو حفص الهنتاتى .. الخ ، الذين كانوا أساس الدعوة الموحدية بالمغرب . ويزودنا بوصف لما كان يقوم به من تمييز لهذه القبائل . وتتمثل أهمية الكتاب وقيمته فى ذكر تفصيل التنظيم السياسى الذى أعده المهدى من : العشرة والخمسين والسبعين الى أن يصل الى العبيد والخدم ؛ كما هو مبين فى صلب البحث .

٦ — عبد الملك بن محمد بن صاحب الصلاة الباجى وتاريخ المن بالامامة على المستضعفين :

اعتمد البحث على الجزء الثانى من هذا الكتاب ، وهو القسم الذى نشره وحققه الدكتور عبد الهادى التازى . وقد سجل الناشر فى مقدمته أن مؤلف الكتاب توفى سنة ٥٩٤هـ (١١٩٨م) . ونستدل من هذا التاريخ على أن المؤلف عاصر قيام الدولة ، ويتمثل ذلك فى هالة التبجيل والتعظيم التى أحاط بها المهدى بن تومرت وخلفاءه ، ومن هذا المنطلق أيضا نستطيع أن نحكم على رواياته بأنها أولى بالثقة لمعاصرته لحوادث الدولة فى المغرب والاندلس . ولهذا اعتمدت على هذه الروايات فى مواضع كثيرة من الدراسة كدراسة الصلات التجارية القائمة وأسلوب التعامل المالى ونوعية السكة ، هذا بالاضافة الى وصف الاحتفالات التى كان يقيمها الموحدون فى المناسبات الخاصة والعامة ، كالاحتفال بخروج الحملات وترتيبها ورفع الرايات الملونة عند السير للغزو .

ومن الجدير بالذكر أن مادة الكتاب تتشابه فى كثير من المواضع مع مادة كتاب البيان المغرب لابن عذارى المراكشى لا سيما فى الاجزاء المتعلقة بدولة الموحدين • ويغلب على الظن أن ابن عذارى الذى عاش بعد وفاة ابن صاحب الصلاة تأثر بكتابته بل اعتمد عليه فى الفترة المتعلقة بخلفاء الموحدين الاوائل •

٧ ــ كتاب الحلل الموشية فى ذكر الاخبار المراكشية :

لمؤلف مجهول الاسم ، عنى بتصحيحه ونشره علوش بالرباط عام ١٩٣٦م • والكتاب جامع لعصر الخلافة الموحدية وجاء مرتبا على أساس الفترات الزمنية لعصر كل خليفة على حدة ، مع التركيز على الحياة الثقافية وتتمثل فى الصور العديدة لمشايخ وعلماء المغرب ورحلاتهم الى المشرق ، بالاضافة الى مظاهر العمران والحياة الاقتصادية •

وقد صدر مؤخرا تحقيق جديد لكتاب الحلل الموشية فى عام ١٩٧٩ قام على تحقيقه د• سهيل زكار (أستاذ التاريخ الوسيط بجامعة دمشق والمعار سابقا بكلية آداب فاس) والاستاذ عبد القادر زمامة (محاضر مغربى بقسم اللغة العربية بكلية آداب فاس) • وخرجت النسخة المحققة الاخيرة ناسبة التأليف الى (مؤلف أندلسى من أهل القرن الثامن الهجرى)، وكرر المحققان ما سبق أن ذكره غيرهما عن مؤلف هذا الكتاب بذكر ما قاله الحوات عن مؤلفه « السماك » •

واذا كانت هذه النسخة قد أخفقت فى التوصل الى معرفة صاحب الحلل فلقد توصل الاستاذ الدكتور محمود على مكى الى ذلك فى مقدمته للمخطوطة التى نشرها فى مجلة « المعهد المصرى » للدراسات الاسلامية

بمدريد ، المجلد العشرون عام ١٩٧٩ — ١٩٨٠ مدريد بعنوان « الزهـرات المنثورة فى نكت الاخبار المأثورة » • وفى هذه الدراسة أثبت الدكتور مكى أن مصنف الكتاب هو « محمد بن أبى العلاء بن سماك العاملى »[1] •

وتنتمى أسرة بنى سماك الى قبيلة عاملة وهى احدى القبائل اليمنية التى نزلت الاندلس مع طالعة بلج بن بشر القشيرى سنة ١٢٥هـ (٧٤٣م) المعروفة بالطالعة الشامية • وقد استند د• مكى على عدة أسانيد لاثبـات أن صاحب كتاب الحلل هو نفسه صاحب الزهرات المنثورة المشار اليه •

٨ — المعجب فى تلخيص أخبار المغرب لصاحبه أبو محمد عبد الواحد على التميمى المراكشى :

ولد مؤلف هذا الكتاب بمدينة مراكش سنة ٥٨١هـ / ١١٨٥م فى عهد السلطان أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ثالث خلفاء الموحدين ، وتلقى دراساته ما بين فاس ومراكش حيث قابل الوزير الطبيب أبا بكر بن زهر وفيلسوف الاندلس يحيى بن أبى بكر بن الطفيل ، وانتقل من المغرب الى الاندلس وهناك أتيح له أن يطوف بمراكزها العلمية المتعددة بغرب الاندلس ووسطها وشرقها من قرطبة الى اشـبيلية فمـرسية ، ومن هناك جاز الى تونس عام ٦١٤هـ ثم خرج منها متوجها الى المشرق لاداء فريضـة الحج ولقاء العلماء ، ومكث بمصر عامين من ٦١٧ — ٦١٩هـ (١٢١٨—١٢٢٠م)•

وقد صنف مؤلفه هذا فى عام ٦٢١هـ (١٢٢٤م) حسبما يشير الى ذلك مرارا • ومما لا شك فيه أن الكتاب يضم أخبارا هامة من تاريخ المغـرب والاندلس فى عصر دولة الموحدين التى عاصرها المؤلف وعاين حـوادثها

---

(١) ارجع الى مجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية ، المجلد ٢٠ ، مدريد ١٩٧٩ — ١٩٨٠ ، ص ٥—١٨ .

ووقائعها • وقد أخذ البحث منه فى عدة مواضع لا سيما ما يتعلق بمراحل نمو الدولة والصراع الذى خاضه عبد المؤمن وخلفاؤه فى القسم الشرقى من المغرب حتى افريقية ومع قوى القشتاليين والبرتغاليين فى الاندلس شمالا • هذا وقد التزم المراكشى بالاختصار والتخليص لبعض أخبار الدولة لتغيبه فترة كتابته عن وطنه • وترجع أهمية الكتاب أيضا الى كون المراكشى كان معاصرا لحوادث المغرب والاندلس عقب عودته الى مراكش فى سنة ٦١٠هـ (١٢١١م) لحضور حفل مبايعة أبى يعقوب يوسف بن أبى عبد الله محمد — خامس خلفاء الموحدين ، حيث يؤكد على ذلك بقوله : « حضرت ذلك بنفسى » وقوله : « رأيت فلانا لما كنت بتلك المدينة » وقوله : « هذا كله شهدته لا أنقله عن أحد من الناس » ، وقوله : «شهدت هذا كله بنفسى لا أنقله عن أحد ولا أستند فيه الى رواية » • وعلى هذا النحو فكتاب المعجب من المصادر الموثوق برواياتها التاريخية فيما يتعلق بعصر الموحدين وهو لذلك سند تاريخى لحوادث الدولة الموحدية وسجل هام للحياة الادبية والعلمية والعمرانية فى عصر هذه الدولة •

٩ — كتاب الانيس المطرب بروض القرطاس فى اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس •

لابى الحسن على بن عبد الله بن أبى زرع • لم يصلنا شىء عن حياة المؤلف سوى أنه كان شاهدا بسماط العدول ، فهو من اسرة لها مكانتها فى فاس فى العصر الموحدى ثم المرينى • والكتاب يؤرخ للدول ابتداء من قيام الدولة الادريسية حتى عهد الخليفة السعيد عثمان بن يوسف يعقوب بن عبد الحق المرينى فهو سجل لما جرى فى المغرب من حوادث حتى عام ٧٢٦ هـ (١٣٢٧ م) • يبدأ المؤلف بذكر نسب كل دولة وتشعب قبائلها ،

ومراحل تأسيسها ثم يذكر سلاطينها واحدا تلو الآخر ويسجل اعمالهم ومنشئاتهم • وفى نهاية كل دولة يجمل ابن أبى زرع الاحداث الاقتصادية والاجتماعية وبعض الظواهر الطبيعية كالمجاعات وانتشار الاوبئة •والكتاب على هذا النحو مصدر هام بالنسبة لموضوع الرسالة لا سيما الجوانب الاقتصادية والعمرانية ، وان كان هناك بعض المؤرخين الحديثين يطعنون فى صحة ما أورده من أخبار فقد اتهموه بالكذب والاختلاق والتلفيق[1] •

١٠ ــ نفح الطيب فى غصن الاندلس الطيب ، لمؤلفه المقرى :

وهو أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى عبد الرحمن بن أبى العيش ابن أحمد المكنى بأبى العباس المقرى « بتشديد القاف » التلمسانى نزيل فاس ثم القاهرة (توفى بالقاهرة ١٠٤١ هـ) رغم عدم طيب مقامه بها • عكف المؤلف اولا على كتابة تاريخ لابن الخطيب يتناول حياته وانتاجه العلمى والادبى • وبعد أن أتم المقرى هذا الكتاب رأى أن يمهد له بتاريخ عام للاندلس ، فخرج الكتاب على شكل موسوعة كبيرة عن الاندلس • ويعتبر الكتاب مصدرا أساسيا لكل من يهتم بالبحث فى تاريخ المغرب والاندلس • وقد اعتمد البحث على هذا الكتاب فيما يتعلق بالحياة الثقافية فى المغرب الموحدى والمشرق الاسلامى • ويتمثل ذلك فى معرض الترجمة لعلماء المغرب والاندلس ورحلاتهم الى المشرق •

واهتم المؤرخون والمستشرقون بالكتاب ، فنشر دوزى القسم الاول منه الخاص بتاريخ الاندلس ، وألحق به فهارس دقيقة • كذلك قام المستشرق الاسبانى باسكوال دى جاينجوس ــ الذى كان سفيرا لبلاده

---

(١) د. مختار العبادى ، دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس ، الاسكندرية ، ١٩٦٨ ، ص ٥٥٩ .

فى انجلترا — بترجمة المعلومات التاريخية التى تضمنها هذا الكتاب الى الانجليزية بعد ترتيبها زمنيا والتعليق عليها بحواشى مفيدة تحت عنوان

Pascual de Gayangos : History of the Mohammadan Dynasties in Spain. Vols. 2.

أى تاريخ الدولة الاسلامية فى اسبانيا .

هذا وقد نشر كتاب نفح الطيب برمته فى مطبعة بولاق فى اربعة أجزاء سنة ١٨٦٢ م . ثم أعاد نشره حديثا الشيخ محيى الدين عبدالحميد فى عشرة أجزاء .

١١ — رسالة بعنوان : مضمار الحقائق وسر الخلائق لصاحب حماه :

وهو محمد بن تقى الدين عمر بن شاهنشاه الايوبى ، ابن أخ صلاح الدين ، قام بتحقيقها الدكتور حسن حبشى . وقد استفادت الباحثة كثيرا من هذه الرسالة ، فى تتبع العلاقات السياسية بين المغرب الموحدى والمشرق الايوبى ، التى سجلها المؤلف ضمن حديثه عن حملة قراقوش (على المغرب)، وفى معرض حديثه عن أحداث المغرب الواردة وفق المنهج الحولى وفيها يذكر مساندة قراقوش لابن غانية من جهة وللعرب الهلالية من جهة ثانية . وقد اعتبر الخليفة يعقوب المنصورى هذا المسلك عملا عدائيا ، وترتبت عليه نتائج خطيرة على مستقبل العلاقات بين مصر الايوبية والمغرب الموحدى ، وتمثل ذلك فى فشل السفارة التى سيرها صلاح الدين برئاسة أسامة بن منقذ الى مراكش لطلب مساعدة الموحدين بحريا لقوى الايوبين فى صراعها ضد الصليبيين . والرسالة المذكورة مبتورة فى الاول والاخر ، ولكنها مصدر هام لتاريخ العلاقات السياسية بين المغرب فى عصر المنصور والدولة الايوبية فى مصر والشام على عهد صلاح الدين .

١٢ — كتاب الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى :

لصاحبه السلاوى ، وهو الشيخ أحمد بن خالد الناصرى السلاوى . ينتسب مؤلف هذا الكتاب الى أسرة الشيخ أحمد بن ناصر الدلوى الجعفرى

مؤسس الزاوية الناصرية بتامجروت فى وادى درعة جنوب المغرب • فهو مغربى فح نشأ فى قلب المغرب الاسلامى ، وطاف فى شبابه بأنحاء المغرب ما عدا أجزائه الجنوبية موطن أجداده ، ثم عمل موظفا فى المخزن ، واختص بالشئون المالية والاحباس ، وخدم فى الثغور المغربية مثل سلا والدار البيضاء ، وأتاح له هذا العمل فرصة الاتصال بالاوربيين والافادة من علمهم وكتبهم •

كان الشيخ أحمد من كبار فقهاء المالكية المتعصبين للسلف (توفى ١٣١٥هـ — ١٨٩٠م) ، ولسلفيته مقت الدعوة الموحدية صاحبة مبادىء التوحيد ، لكنه أرخ لاحداث تلك الدولة وتوسعاتها ، وقضائها على الثورات التى واجهتها • وقد احتلت الدولة الموحدية وقبلها دولة المرابطين الجزء الثانى من مؤلفه الذى يصل الى تسعة أجزاء فى طبعته الثانية بالمغرب • ولقد التزم المؤلف فى سرده للحوادث التاريخية منهجا تاريخيا أقرب مايكون الى المناهج العلمية ، فكان يعتمد على المصادر المعاصرة للحوادث ولا يأخذ الا بالروايات الموثوق بها ولهذا فان الكتاب رغم حداثته يعد مصدرا تاريخيا قيما •

١٣ — تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية لمؤلفه الزركشى :

وهو محمد بن ابراهيم بن اللؤلؤ الزركشى • ينتسب الى جده اللؤلؤ المجهول الاصل ، ولكنه تتونس ، وكانت ولادة حفيده المترجم له بتونس• وقد عاش المؤلف عصرا تمزقت فيه وحدة العالم الاسلامى وانكمشت فيه رقعة الاندلس بسقوط معظم قواعدها ومعاقلها ؛ كما شهد مرحلة تاريخية مؤلمة عانت فيها تونس من ويلات الحرب الاهلية مما كان له أثره العميق فى اضمحلال الحركة العلمية • ومع أن مؤلف الكتاب يوجز عرضه التاريخى

لاحداث المغرب من القرن ٦هـ حتى ٩هـ/١٢ — ١٥م ، ويمر مرا سريعا على الدولة التي قامت بالمغرب في : مراكش — تلمسان — وتونس ، الا أن قيمة الكتاب تتركز في أن الزركشي كان شاهد عيان لاحداث الدولة الحفصية بتونس وأنه سجل كثيرا من وقائع عصره في صدق وواقعية ، وعلى هذه الفترة التاريخية اعتمدنا في الفصل الخاص بالحفصيين .

١٤ — نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان :

عن اسم مؤلفه ، فقد اختلف فيه المؤرخون ، فالترجمة التي تحمل اسم ابن القطان بكتاب التكملة لابن الابار (ت سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م) تذكر أنه هو : علي بن محمد بن عبد الملك بن يحيى بن ابراهيم الكامي الحميري الفاسي ، أبو الحسن ابن القطان . ويضيف ابن الابار قائلا : « وكان من أبصر الناس بصناعة الحديث وأحفظهم لاسماء رجاله ، وانه كان يشرف على طلبة العلم بمراكش ، واشتغل بالتدريس والقضاء . وتوفي قاضيا بسجلماسة سنة ٥٢٨هـ » .

والترجمة التي دونها ابن عبد الملك المراكشي (ت سنة ٦٦٩هـ) بكتابه « الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة » تتضمن ما يشير الى أن ابن القطان فاسي الاصل وأنه مع ذلك سكن مراكش ، وكان ذاكرا للحديث متبحرا في علومه معظما عند الخاصة من آل عبد المؤمن ، ومن الناس جميعا . وقد حظي ابن القطان عند يعقوب المنصور ثم ابنه الناصر ثم ابنه المستنصر . وكان يعقوب المنصور يؤثره على غيره من أهل طبقته ، ويخصه بالرجوع اليه في أمور شتى .

وقد قامت الادلة على أن الترجمتين المذكورتين ليستا لابن القطان صاحب كتاب نظم الجمان وانما هما لوالده . اذ ورد بكتاب نظم الجمان

نفسه عبارات تشير الى عهد الخليفة المرتضى الذى حكم المغرب من سنة ٦٤٦ — ٦٦٥هـ (١٢٤٨ — ١٢٦٦م) ، على حين يذكر ابن الابار أن ابن القطان مات سنة ٦٢٨هـ (١٢٣٢م) • كما أورد ابن عذارى أن الخليفة المرتضى كان محبا للعلوم ، مقبلا على القراءة فألف له « ابن القطان » جملة من الكتب الجليلة منها : « نظم الجمان وواضح البيان فيما سلف من أخبار الزمان » •

وكتاب نظم الجمان موسوعة كبرى فى تاريخ المغرب من بدء الفتح الاسلامى حتى قبيل سقوط الدولة الموحدية سنة ٦٦٧هـ (١٢٦٩م) • ويورد لنا مؤلف الكتاب تفاصيل هامة وقيمة عن دولة الموحدين مدعمة بالوثائق للمهدى بن تومرت مكتوبة بخطه ، ورسائل من عهد عبد المؤمن وخلفائه وقد ذكر طبقات حكومة المهدى بنظام دقيق ، وذكر أسماء مجلس العشرة ومجلسى الخمسين والسبعين كاملة • ولا يخلو كتاب نظم الجمان من عيوب ؛ هى بعينها تلك العيوب التى وقع فيها مؤرخو البلاط الموحدى ومنها : شدة التعصب للخلفاء الموحدين وعبارات الاجلال والتعظيم التى تصل الى حد التملق التى يكررها فى كل فقرة من فقرات الكتاب واغفاله لدولة المرابطين حقها • وقد نشر الاستاذ الدكتور محمود على مكى قطعة من كتاب نظم الجمان فى أخبار الزمان فى الرباط عام ١٩٦٤ •

١٥ — البيان المغرب لابن عذارى المراكشى :

وترجع أهمية هذا الكتاب الى كونه صدرا شاملا لتاريخ المغرب والاندلس من الفتح الاسلامى حتى عام ٦١٢هـ وذلك على الرغم من تأخره النسبى • وهو لذلك من أكثر مصادر تاريخ المغرب الاسلامى تفصيلا ، وأثرها مادة ، ويرجع ذلك بطبيعة الحال الى استفادته من تواريخ السابقين

كالرقيق وابن عبد البر وابن القطان والوراق وغيرهم ممن أشار اليهم فيما نقل عنهم • وما يهمنا من هذا التاريخ الجزء الثالث طبع تطوان سنة ١٩٦٠• فقد حفظ لنا ابن عذارى بجانب الحياة السياسية والاقتصادية للدولة الموحدية والحفصية جانبا هاما من الحياة الادبية متمثلة فى القصائد التسعرية التى امتدح بها القبائل العربية محاولا شحذ همم العرب سواء فى عهد يوسف بن عبد المؤمن ويعقوب المنصور الموحدى ، وتصويره لصورة وصول رسول صلاح الدين الايوبى والوصف الذى قوبل به لحين وصول الخليفة يعقوب المنصور الى فاس •

١٦ ــ الحسن الوزان أو يوحنا ليون الافريقى (١٤٨٨ــ١٥٣٢م) :

وهو الرحالة المغربى الحسن بن محمد الوزان الفاسى الغرناطى ، وهو نفسه ليون الافريقى Leon Africanus ، ولد فى غرناطة عام ١٤٨٨م ؛ ثم هاجرت أسرته الى مدينة فاس بالمغرب بعد سقوط غرناطة عام ١٤٩٢م • ومن هناك طاف الحسن الوزان بلاد المغرب والسودان الغربى ثم ارتحل الى الشرق فزار مصر والقسطنطينية وبعض أقاليم آسيا •

ولعل أدق المعلومات وأكثرها عمقا ووضوحا تلك التى أوردها الحسن الوزان فى وصف بلدان المغرب الاقصى التى قضى شبابه فى التجول بين ربوعها • أما بقية بلاد المغرب مثل الجزائر وتونس وطرابلس ، فانه جمع ما أمكنه جمعه من معلومات وبيانات عنها أثناء مروره فى رحلاته البرية والبحرية •

وقد وقع الحسن الوزان أسيرا فى أيدى القراصنة أثناء عودته من رحلته الثانية الى القسطنطينية ، فوجد طريقه الى روما وسلموه الى البابا ليو العاشر ، فاعتنق المسيحية وسمى نفسه ليون الافريقى ، وانقطع للبحث

والتأليف • وكان الحسن الوزان عند قدومه الى روما يحمل مسودة الكتاب الذى صنفه فى وصف افريقية وتاريخها باللغة العربية •

ومنهج الحسن الوزان يختلف عن منهج الجغرافيين والرحالة المغاربة الذين سبقوه فى التأليف عن افريقية مثل : البكرى والادريسى وابن بطوطة• فقد اعتمد كل من البكرى والادريسى فى جمع مادة كتابه على ما أخذه عن الرحالة والمسافرين والتجار وأهل البلاد الذين أتيح له الاتصال بهم • أما الحسن الوزان فان مصدره عن معظم المـــادة العلمية الخاصة بافريقية هو ما شهده بعينه أو سمعه باذنه فى بيئته الاصلية ، فكتب وصفا لافريقية وأرخ لمالكها وشعوبها وقبائلها •

لذلك ركز الحسن الوزان بعد رحلاته العديدة فى شمال افريقيا على أهمية الدور الذى تلعبه التجارة الســـودانية فى الحيـــاة الاقتصـــادية والاجتماعية لبلاد المغرب الممتدة من طرابلس شرقا حتى البحر المحيط غربا•

ومنهج الحسن الوزان فى التأليف والكتابة عن مصر لا يختلف كثيرا عن منهج الجغرافيين والرحالة الذين سبقوه ، فكان يردد بعض التقاليد الشعبية المختلطة بالاساطير والخرافات عن المجتمع المصرى ، لذلك فان ما كتبه عن مصر بصفة عامة لا يخلو من دقة فى وصف المعالم الطبيعية للبلاد والتعريف بطرقها ومسالكها ، ومواردها الزراعية ، ووصف معالم مدنها ، وأوجه نشاط أهلها الاقتصادى وحياتهم الاجتماعية •

والواضح من الصورة التى أراد الوزان رسمها لبلاد السودان من ناحية ومصر من ناحية أخرى ، أنها صورة منتزعة من واقعها • لذلك فقـــد ترجم هذا الكتاب الى الايطاليـــــة ســـنة ١٥٢٦م ، ونشر Romusio

النص الايطالى سنة ١٥٥٠م • ثم نقل هذا الكتاب الى عدة لغات : لاتينية بمعرفة Temporal وانجليزية على يد John pory سنة ١٦٠٠م ونشرها روبرت براون Robert Brown مع تحقيق النص وكتابة حواشيه فى ثلاثة أجزاء عام ١٨٩٦م بلندن • أما الترجمة الاسبانية فصدرت فى معهد الجنرال فرانكو عام ١٩٥٢م الذى أصبح اليوم معهد مولاى الحسن بتطوان •

ولا يفوتنى فى معرض حديثى عن المصادر التى اعتمدت عليها فى بحثى أن أتحدث عن كتب الرحلات التى تعتبر من المصادر الهامة لدراسة الجوانب الاقتصادية والاجتماعية فى المغرب الاسلامى • ومن أهم كتب الرحلات تلك ما يلى :

١٧ ـ الرحلة المغربية للعبدرى :

وهو ، أبو عبد الله محمد بن محمد بن على بن أحمد بن مسعود العبدرى الحيحى ، نسبة الى بلاد حاحة أى منطقة السوس الاقصى • وواضح أن العبدرى من خلال رحلته ينتسب الى أسرة كان لها حظ وافر من العلم وأنه قام فى مقتبل عمره برحلته الى المشرق • بدأ الرحلة من تلمسان برا الى المشرق ، وأعرب فى مقدمتها عن أنه « سيستعمل الصراحة فى الرحلة والانصاف وأنه لا يعمد الى تقبيح حسن ولا تحسين قبيح » ، وهذا ما فعله فى الكلام عن القاهرة وأخلاقيات أهلها وعاداتهم وتقاليدهم القبيحة ، وكذلك فى كلامه عن الاسكندرية ووصف أبوابها ومنازلها ومنارتها وكرم أهلها ما عدا رجال الديوانة وتصرفاتهم الآثمة نحو الوافدين من سوء المعاملة والتشدد فى التفتيش وجباية الضرائب • ولكنه زودنا بصورة مشرفة عن الحياة العلمية فى مصر فى العصر الايوبى • فقد كانت مصر حينئذ قبلة العلماء ومحط رحال الفضلاء • وعلى حد قوله عن شرف الدين

الدمياطى : « لم أر بهذه المدينة على كثرة الخلق بها أمثل ولا أقـرب الى الانسانية وأجمل معاملة من الشيخ الفقيه فلان ... » ، وذلك ما قاله عن نور الدين ابن المنير عالم الاسكندرية من كونه : « صـدر البلغاء ورأس الكتاب والناظمين ، وحيد العلماء وبحر المصنفين » ، ثم أوصافه أيضا عن ابن دقيق العيد .

لذلك ، فالرحلة وثيقة هامة عن الحياة الاجتماعية والثقافية فى القرن السابع الهجرى للبلاد التى مر بها صاحبها وزارها ، وسجل عن أوضـاع طائفة المغاربة المقيمين فى مصر . كما تتضمن الرحلة مقولات أدبية وشعرية من انتاج من لقيهم صاحبها من شعراء مصر ، ومثال ذلك قصيدتان لابن جبير . احداهما فى مدح صلاح الدين والاستغاثة به من الاعمال القبيحة التى كان يقوم بها أعوان الديوانة ضد حجاج بيت الله ، والثانية قصيدة فى مدح الرسول وقد رواها العبدرى عن ابن حباسة الاسكندرى .

ولا يعرف تاريخ وفاة العبدرى ، الا أن الاستاذ محمد الفاسى محقق الرحلة يرجح أنه توفى فى مدة قريبة من رجوعه من الحج ، وأن قبره لا زال الى الان معروفا عند مواطنيه من أهل حاحة حيث يطلق عليه اسم «سيدى أبى البركات » . ويقع هذا القبر بقرية ادا وعزة بقبيلة أدا ويسـارن فى جنوب الصويرة ، على بعد ٣٦ كيلو مترا من مدينة الصويرة .

١٨ — رحلة ابن رشيد السبتى الفهرى (ت ٧٢١هـ/١٣٢١م) :

ويكنى أبا عبد الله ويعرف بابن رشيد . ولد هـذا الرحالة المغربى بمدينة سبتة فى بيئة علمية وعايش فترة الاضطرابات بالمغـرب المعاصرة لنهاية الدولة الموحدية وقيام دولة بنى مرين . وعاصر ابن رشيد أيضـا أحداث الدولة الحفصية بتونس ، وارتحل الى المشرق عبر أراضيها فى سنة

٦٨٣هـ / ١٢٨٤م ، لاداء فريضة الحج والاتصال بالمدارس العلمية فى الحجاز والشام ومصر[١] • فأبحر من ثغر المرية الى الفريقية ومنها الى مصر والشام • وتعد رحلته من أهم الرحلات المغربية الى المشرق فقد سجل مشاهداته ومعايناته فى مدن الفريقية ومصر والاندلس ، وما أورده عن مصر يمتاز بكثرة تفاصيله ودقتها لا سيما عن الاسكندرية والقاهرة والفسطاط وبلبيس • وقد اهتم ابن رشيد فى رحلته اهتماما خاصا بالادب وسجل مشاهداته عن انطباعاته بالنسبة للحياة العلمية عموما • ولشدة اعجابه بالحياة الثقافية فى الديار المصرية والتونسية ، التى قامت على نفس نمط المدارس المشرقية ، قام ابن رشيد بتدريس ما تعلمه من العلوم لطلبته المغاربة بفاس حيث توفى فى ٢٣ محرم سنة ٧٢١هـ/١٣٢١م[٢] •

١٩ ــ تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار (المعروفة برحلة ابن بطوطة) :

هو أبو عبد الله محمد الطنجى اللواتى ، ويلقب بشمس الدين ويعرف بابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٨م) • ولد ابن بطوطة فى مدينة طنجة سنة ٧٠٤هـ/١٣٠٤م ، وقام برحلته بعد بلوغه سن العشرين التى شملت أرجاء العالم ، وهى فى حقيقتها تتألف من ثلاث رحلات :

الرحلة الاولى :

غادر فيها طنجة مسقط رأسه سنة ١٣٢٥م وطاف فى أنحاء المغرب الاقصى ، ثم اتجه نحو الشرق عبر الجزائر وتونس وليبيا ثم مصر • ومن

---

(١) د. عبد العزيز سالم ، التاريخ والمؤرخون العرب ، ص ٢٢٩ .
(٢) انخل جنثالث بلنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسى ، ترجمة د. حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ٣١٩ .

هناك سافر الى الصعيد (جنوب مصر) وسار فى طريق الحج الجنوبى الى ميناء عيذاب على ساحل البحر الاحمر كى يبحر من هناك الى ميناء جدة •

ولم يستطع الابحار من عيذاب بسبب الحرب التى قامت هناك بين أمراء المماليك حكام مصر وأهالى المنطقة • واضطر ابن بطوطة الى العودة الى القاهرة ومتابعة رحلته الى الحجاز عن طريق الشام • وبعد الحج اتجه الى العراق وايران وآسيا الصغرى ، ثم حج مرة ثانية وجاور فى مكة مدة سنتين • وفى عام ١٣٢٩م غادر الحجاز الى الجنوب فزار بلدانه وعاد الى مكة وحج للمرة الثالثة ، وزار القسطنطينية ، ثم اتجه الى الشرق الاقصى • ولقد كانت هذه الرحلة هامة لوصفه الدقيق للنواحى الاجتماعية والاقتصادية • وعاد ابن بطوطة بعد تلك الرحلة الى مكة وحج للمرة الرابعة ؛ ثم قفل عائدا الى بلاده عبر مصر وتونس والجزائر فوصل فاس عام ١٣٤٩م •

الرحلة الثانية :

بعد اقامته فى بلاده مدة امتدت نحو العام ، قام ابن بطوطة برحلته الثانية الى مملكة غرناطة وذلك فى عام ١٣٥٠م •

الرحلة الثالثة :

بعد عودته الى فاس عام ١٣٥١م ، واقامته بها مدة عام آخر ، بدأ ابن بطوطة رحلته الثالثة الى بلاد السودان الغربى سنة ١٣٥٣م ، استغرقت هذه الرحلة ثلاث سنوات عاد بعدها ابن بطوطة الى فاس ، حيث استقر

فى بلاط السلطان أبى عنان المرينى يروى ما شاهده من العجائب والغرائب. وكان هناك شك فيما رواه ابن بطوطة ولكنه كان صادقا فى أقواله مصيبا فى أحكامه ، وقد أثبتت الحوادث وأقوال المؤرخين والرحالة الاوربيين صدق روايته . فمثلا لم يبالغ عندما ذكر بأن المركب التى كانت تمر فى نيلها بين شطرى الوادى بلغ عددها ثلاثين ألفا وأن عدد السائقين على الجمال بلغ اثنا عشر ألفا ، فمثل هذه الارقام ذكرها الرحالة الايطالى فريسكوبا لدى Frescoboldi الذى زار مصر بعد ابن بطوطة بنحو خمسين سنة .

وقد غلبت على الجزء الخاص بوصف المغرب فى هذه الرحلة العاطفة الوطنية بحكم كونه مغربيا ، فجعل المغرب فى قمة البلاد التى زارها من حيث الرخاء ورخص الاسعار ، وكثيرا ما قارن بين المغرب والبلاد الاسلامية ولا سيما مصر فى هذه النواحى الاقتصادية والاجتماعية . وعلى هذا الجانب كان اعتمادنا فى البحث فى الفصلين الخامس والسادس .

وتوفى ابن بطوطة سنة ٧٧٩هـ / ١٣٧٨م وقبره يزار فى طنجة . وللرحلة ترجمة فرنسية فى أربعة أجزاء وجزء خامس للفهارس . وهناك طبعات عربية عديدة لها مثل : طبعة الازهر ، وادى النيل فى القاهرة ، سلسلة الروائع اللبنانية تحقيق فؤاد أفرم البستانى .

وبعد .. فاننى أجد على لزاما أن أتوجه بالشكر والعرفان والتقدير الى أستاذى المشرف ، الاستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم أستاذ

التاريخ الاسلامى بجامعة الاسكندرية ، الذى شملنى برعايته ومنحنى من علمه الوفير ووقته الثمين وتوجيهاته القيمة وكتبه العديدة الشىء الكثير .

كما أقـدم شكرى الى كل من قدم لى يد المساعـدة لانجاز هـذا البحث .

والله ولى التوفيق ،،،

الاسـكندرية

أكتوبر ١٩٨٤

ابتسـام مـرعى